

كتب برامج العلماء في الأندلس

لأستاذ الدكتور عبد العزيز الأهواني

أهمية هذه الكتب :

هذا نوع طريف من الكتب شغف به العلماء من الأندلسيين شغفا كبيرا ، وشارك المتقدمون منهم والمتأخرون في إنتاجه مشاركة قوية . وحيثما قرأنا في كتب التراجم وجدنا بين حين وآخر قولهم « وله برنامج » أو « له فهرسة » . وقد ضاع أكثر هذه البرامج أو الفهارس ولم يبق منها الا التذرع اليسير . ومع ذلك فإنها لم تلق من العلماء المحدثين الا عناية متفينة . ولم ينشر منها الا كتاب واحد هو فهرسة ابن خير الاشبيلي ، وثانيها هو الذي نشره اليوم . ويجده القارئ في آخر هذه المقالة ، وهو برنامج ابن أبي الربيع الاشبيلي . وقد بقى من هذه الكتب عدد ينتظر الباحثين الذين يتولون نشرها ، وانا لنترجو أن يتاح ذلك قريبا ، فان هذا النوع من الكتب تتم فائدته وتتحقق المنفعة به كلما ازداد ما ينشر منه اذ يفتح ذلك المجال للدراسة المقارنة .

وحسبنا في التدليل على طرافة البرنامج أن نقول انه كتاب يسجل فيه العالم ما قرأه من مؤلفات في مختلف العلوم ، ذكرا عنوان الكتاب واسم مؤلفه ، والشيخ الذي قرأه عليه أو تحمله عنه ، وسنده الى المؤلف الأول ، وربما ذكر خلال ذلك المكان الذي كان موضعا للدرس ، والتاريخ الذي بدأ فيه الدراسة أو ختمها . ونحن نعلم شغف الأندلسيين بالكتب ، وقد أفرد لهذا الشغف المستعرب الأسباني خوليان ريبيرا بحثا قيما لطيفا (1) ، ولكننا نعلم أن حرصهم على لقاء الشيوخ كان أكبر

(1) Julian Ribera y Tarrago, *Bibliofilos y Bibliotecas en la Espana Musulmana* (Diset. y Opusc. T. 1, p. 180) Madrid 1928.

من حرصهم على اقتناء الكتب ، لذلك كانت بعض هذه البرامج ، على عنايتها بالكتاب ، تعنى بالشيوخ ، وتفرد لهم جانبا فيه حديث عنهم وعن حياتهم ومنزلتهم العلمية . دون أن تتجاوز في ذلك القصد والاعتدال ، فالبرنامج اذن سجل يكشف عن منابع الثقافة التي ارتوى منها العالم والأصول التي اعتمد عليها والتي كانت بغير شك مراجع له فيما ألفه من كتب . وهي بذلك تعين الدارس للمؤلف صاحب البرنامج على معرفة الأصيل والمجلوب من الآراء .

ونحن نعلم أن المكتبة العربية قد تضخمت واتسعت . وان العلم الواحد ألفت فيه مئات الكتب بل آلافها ، ولدينا كتب تسرد هذه المؤلفات وترتبها تحت أبواب العلوم أو حسب حروف الهجاء (١) . ولكن أى هذه الكتب كان مفضلا عند الدارسين خلال العصور المختلفة وفي البيئات المتعددة ، وأيها أصبح كتابا مدرسيا يحفظه المتدئون ، ويرجع اليه الدارسون ؟ كتب البرامج تكشف لنا عن هذه المسألة ، وتعرفنا أى كتب النحو كان يدرس في اشبيلية في القرن الخامس وأيها في قرطبة في القرن الرابع وأيها في تونس في القرن السادس . أى أننا نعرف منها الكتب الحية المتداولة بين الناس . وبذلك تختلف عن كتب الفهارس العامة التي تحصى الكتب دون أن تعنى غالبا بحياتها .

وأمر آخر تكشف عنه هذه البرامج فيما يتصل بحياة الكتب في الأندلس ، وصلتها بما كان يؤلف في المشرق . أى هذه الكتب المشرقية دخل الأندلس ، وعلى يد من انتقل من المشرق الى المغرب ؟ ان اسم الكتاب والسند الذي يذكره صاحب البرنامج يجعلنا نقف على هاتين المسألتين . ثم ما مقدار الكتب المشرقية الى الأندلسية فيما قرأه العالم الواحد ، وأي أنواع العلوم كان محتكرا أو شبه محتكرا لمشاركة وأيها

(١) أشهرها الفهرس لابن النديم (ق ٤) - ومفتاح السعادة لطاش كبرى زاده (ق ١٠) - وكشف الظنون لحاجي خليفة (ق ١١) . وثلاثها مطبوع

كان وقفا على مؤلفين مغاربة وأندلسيين ؟ وإلى أى مدى كانت كتب المحدثين من المؤلفين تنافس السابقين من القدماء ؟ كل هذه المشاكل التى تتصل بتاريخ العلوم وبجياة الكتاب العربى مما تعين كتاب البرامج على الوصول فيها الى نتائج حاسمة أو واضحة .

وقد وجدت لهذه البرامج نظائر فى الشرق وان غلب عليها لفظ (ثبت) أو (معجم) أو (مشيخة) ، ووصلت اليها بعض هذه الأبحاث والمعاجم والمشيخات . وما يقال عن أهمية البرنامج الأندلسى يقال عن الثبث المشرقى . ان دراستها يمكن من معرفة تداول الكتب وما أجمع عليه منها المشاركة والمغاربة وما انفرد به كل بلد ، ويحدد مناطق النفوذ لبعض المؤلفات والمؤلفين .

ثم اننا فى هذه الكتب أمام تلميذ يتحدث ان أساتذته الذين لقيهم وأخذ عنهم العلم . وحديث هذا شأنه — أيا كان اختلافه بين الأجيال والأطناج — له قيمة المستند المباشر الذى يحمل فى ثناياه ويكمن خلفه شعور نفسى يمتد أثره الى القارىء لتلك الكتب ، خلافا لأكثر كتب التراجم العامة التى تفصل حجب الزمن بين المترجم والمترجم له ، والتى يكون النقل فيها عن طرق غير مباشرة . وقد كان شعور الوفاء بين العالم وشيخه من جانب ، وحينه الى عهد الدرس والطلب من جانب آخر . من العوامل التى دفعت بعض العلماء الى كتابة برامجهم . وقد عبر واحد منهم عن ذلك بقوله (١) « فأثبت ما لم يفلته ذكرى ، وأوردت ما لم يرتب فيه فكرى ، من أسماء الأشياخ الذين لقيتهم وأخذت عنهم ، والافصاح ببعض ما استفدته منهم ، وان كان قد أتى على كثير من ذلك ما يختص به الانسان من نسيان ، وذهب معظم المقيد والمستفاد ، بالتردد فى الأسفار والتحول عن الأوطان ، وفرقة شذر مذر هوائج الفتن وحوادث الزمان ... وما حتى على اثبات ذلك واكتتابه ، وحدانى الى ايراده واجتلابه

(١) هو أبو الحسن الرعيني فى مقدمة برنامجه الذى سنتحدث عنه بعد

ما حدثني به الشيخ الصالح أبو الحسن علي بن أحمد الغافقي اذنا ، قال القاضي أبو الفضل عياض بن موسى .. قال سمعت القاضي أبا علي الصدفي يقول : سمعت أبا محمد رزق الله بن عبد الوهاب التميمي الامام رحمة الله عليه يقول : يقبح بكم أن تستفيدوا بنا ثم تذكرونا ولا تترحموا علينا .

« وحدثني الفقيه الجليل أبو الحسين بن القاضي أبي عبد الله بن زرقون — نا — أبي رحمه الله عن أبي عبد الله .. بن غلبون .. سمعت محمد بن اسحق بن راهويه يقول ، سمعت أبي يقول : قل ليلة الا وأنا أدعو لمن كتب عنا وكتبنا عنه . فجدد الله رحمته ورضوانه على كل من أخذنا عنه من المشيخة الأعلام . وجمعنا بهم وبأسلافهم في دار السلام بمنه » .

أصل هذه الكتب :

هذا النوع من الكتب — وان صار مستقلا له طابع فريد — يرتد في أصله الى علم الحديث ويحتفظ ببعض مصطلحاته وأساليبه . ونحن نعلم أن علم الحديث كان سببا لنشاط رائع خصب تفرعت عنه علوم كثيرة . وقد اصطاح المحدثون على اطلاق لفظ معجم ولفظ مشيخة على نوع من كتب الحديث . قال محمد بن جعفر الكتاني عن المعجم « وهو في اصطلاحهم ما تذكر فيه الأحاديث على ترتيب الصحابة أو الشيوخ أو البلدان أو غير ذلك . والغالب أن يكونوا مرتبين على حروف الهجاء كمعجم الطبراني الكبير المؤلف في أسماء الصحابة على حروف المعجم (١) »

وقد ذكر ابن حجر هذه المعاجم والمشيخات في فهرسة مروياته التي احتفظ لها بعنوان يجمع بين لفظي معجم وفهرس فسميت « المعجم

(١) الرسالة المستطرفة لبيان مشهور كتب السنة المشرفة ص ١٠١ —

المفهرس» (١) وقال فيه « فصل في المشيخات ، وهي في معنى المعاجم الا أن المعاجم ترتب المشايخ بها على حروف المعجم في أسمائهم ، خلاف المشيخات » .

وإذا كان المحدث القديم يذكر الأحاديث مسندة الى الرواة الذين نقل عنهم فكتب البرامج تذكر المرويات مسندة الى العلماء . والمرويات في كتب البرامج انما هي كتب أو ان شئت مجموعات من الأحاديث مدونة بين دفتين ، وقد صار الراوى فيها عالما له مؤلفات أو حاملا مؤلفات . وهذا تطور طبيعي نشأ عن انتشار حركة التدوين ومزاحمتها للرواية الشفوية ، تلك المزاحمة التي انتهت بقول ابن خلدون (٢) « وقد انقطع لهذا العهد تخريج شيء من الأحاديث واستدراكها على المتقدمين .. وانما تنصرف العناية لهذا العهد الى تصحيح الأمهات المكتوبة وضبطها بالرواية عن مصنفها .. » .

ثم نتقلت المسألة من تسجيل مجموعات الأحاديث الى تسجيل كل أنواع المرويات في علوم الدين واللغة والأدب كما انتقل لفظ المعاجم من المحدثين الى سائر الطبقات التي يترجم لها فكانت معاجم الشعراء ومعاجم الأدباء ومعاجم البلدان أيضا . وآثر المؤلفون أن يستخدموا لفظين لهما دلالة أقرب الى موضوعات كتبهم ، وهما لفظ فهرسة ولفظ برنامج يستعملان بمعنى واحد (٣) . وكلاهما غير عربى الأصل وانما أخذنا عن الفارسية وعربا (٤) . ومع ذلك فقد بقى لفظ معجم — كما رأينا —

(١) سنتحدث فيما بعد عن المعجم المفهرس هذا لأنه واحد من كتب البرامج . والنص المنقول في ورقة ٨٤ ومن مخطوطة دار الكتب

(٢) المقدمة ، فصل « علوم الحديث » ص ٤١٩ من طبعة بولاق سنة ١٣٢٠ (الطبعة الثالثة)

(٣) يستعمل ابن خبير اللفظين ويطلقهما على نفس الكتاب الواحد . وسيمر بنا بعد شواهد لهذا

(٤) انظر تاج العروس مادة (فهرس) و (برنامج) وانظر قاموس Steingass في برنامجه

يستعمل أحيانا بمعنى فهرسة وبرنامج واختصر لفظ المعجم في الأندلس يكتب فيها تراجم الشيوخ أو التلامذة دون العناية بالمرويات^(١) . ونحن حين نراجع أسماء من ألفوا برامج من الأندلسيين نجد أن أكثرهم كانوا من علماء الحديث أو ممن غلب عليهم علم الحديث . ثم يجيء بعدهم الفقهاء والنحاة ، ولم نجد لأديب أو شاعر برنامجا مما يدل على أن هذا النوع من التأليف ظل قريبا من الأصل الذي تفرع عنه . علم الرواية والرواة .

طرائقهم في كتب البرامج :

اختلفت طرائق كتاب البرامج في تبويب تلك الكتب وتقسيمها . وفي مدى العناية بالكتاب المروى وبالشيخ الراوية . وتفاوت حجم الكتب ايجازا واطنابا وانحصارا في الموضوع واستطرادا . ونحن نعرض بعض تلك الطرائق كما رأيناها في تلك المؤلفات وأساليب مؤلفيها .

١ — وأول هذه الطرائق هو تبويبها على أساس الكتب مرتبة

حسب موضوعاتها وتمثلها أدق تمثيل فهرسة بن خير الأشبيلي^(٢) . وسوف نستعرض في ايجاز ما اشتمل عليه كتابه لتوضح طريقته بالقياس إلى غيرها ، ونبين بعض خصائصه .

(١) وصلنا من هذه « المعجم في أصحاب أبي علي الصدقي » لابن الأبار . طبع ضمن المكتبة الأندلسية المجلد الرابع Bibliotheca Arabico-Hispana بإشراف كوديرا - مدريد سنة ١٨٨٦

(٢) هو أبو بكر محمد بن خير بن عمر بن خليفة الأموي الأشبيلي . ولد في سنة ٥٠٢ هـ وتوفي في سنة ٥٧٥ هـ

انظر : بروكلمان ، تاريخ الأدب العربي ، (C. Brockelmann, GAL) ج ١ ص ٤٩٩ - ، بونص ، Pons Boigues. *Ensayo Bié. Bibliog.* ص ٢٤٢ . وقد طبع كتاب ابن خير ضمن المكتبة الأندلسية . مدريد سنة ١٨٩٤

بعد مقدمة يحرص ابن خیر فيها على أن يظهر علمه بالأحاديث فلا يقول جملة الا يستشهد عليها بحديث متصل بالسند ، يبدأ بسرد ما رواه من الدواوين المؤلفة في علم القرآن ، وصدرها بكتب القراءات ثم الوقف والابتداء ، ثم بناسخ القرآن ومنسوخه . ثم الأحكام والتفسير وبعد أن فرغ من ذلك انتقل الى الحديث (١) فبدأ بالموطآت والمصنفات المسندة ثم بسائر كتب الحديث وما يتصل بعلمه من معرفة العلل والتواريخ والرجال . وباب الحديث أوسع الأبواب وأحفلها عند ابن خیر . وبالاتهاء منه يدخل في كتب السير والأنساب (٢) . ثم ينتقل الى كتب الفقه ويقتصر على المؤلفات في المذهب المالكي دون غيره . ويخصص بابا بعده لكتب أصول الدين والفقه وفضل العلم (٣) وكتب الزهد والرقائق . ثم يدخل بعد ذلك في باب واسع يجعل عنوانه « ومن كتب الأنحاء واللغات والآداب والشروحات وأشعار العرب والمحدثين وما يتصل بذلك من نوعه » وهو في خلال هذا الباب يفرد بعض بيانات طريفة تخص أهل الأندلس مثل ما أفرده لما جلبه أبو علي البغدادي من الأخبار (٤) .

وبعد أن يستوفي هذا الموضوع المتشعب يذكر سجلا حافلا لما رواه من كتب الفهارس الجامعة لروايات الشيوخ ، والذي كتابه هذا واحد منها (٥) . وهو باب مهم لحصره عددا ضخما من هذه البرامج يلقي ضوءا على حركة التأليف فيها . وهو وان كان في هذا الباب يقتصر على لفظ (فهرسة) أو لفظ (شيوخ ..) الا أن مراجعة المواضع الأخرى من كتابه تدل على أنه استعمل اللفظين — أي الفهرسة والبرنامج —

(١) ص ٧٧ وهذا الباب أكثر من ١٥٠ صفحة فكأنه نحو ثلث الكتاب .

(٢) ص ٢٣٠

(٣) ص ٢٤٠

(٤) ص ٢٥٥ (٥) ص ٣٩٨

بمعنى واحد كما ذكرنا من قبل وذلك في اشاراته الى فهرسة ابن بشكوال (١) وأبى مروان بن سراج (٢) وأبى على الصدفى (٣) ومكى ابن أبى طالب وابن الحاج التجيبى (٤).

وعناية ابن خير بشيوخه في هذا الكتاب لا تتجاوز ذكر أسمائهم في سنده لمروياته ، وذكر بعض ألقابهم أو وظائفهم ، والدعوة بالرحمة لمن مات منهم . ولا يكاد يذكر الأماكن والتواريخ الا نادرا كقوله في ترجمة النفزى « سماعا عليه في منزله بأشبيلية حين قدومه علينا سنة ٥١٨ » (٥). وقد أفرد في برنامجه بعد سرد الكتب فصلا بعنوان « باب تسمية الشيوخ الذين رويت وأجازوا لى لفظا وخطا ممن لقينه ومن لم ألقه رحمهم الله » ولكنه باب لا يشتمل الا على مجرد الأسماء مضافين الى بلدانهم : قرطبة والمرية ومالقة والجزيرة الخضراء .

وتعتبر فهرسة ابن خير أوسع الفهارس التى وصلتنا عن الأندلسيين من حيث ضخامتها وكثرة ما وود فيها من أسماء لكتب . ويضعف شأنها بعضى الشئ فيما نحن بسبيله من معرفة حياة الكتب التوسع في معنى الاجازة الذى كان يأخذ به كثير من المحدثين ومنهم ابن خير والذى دافع عنه في بعض فصول برنامجه (٦).

(١) انظر ص ٢٧١ حيث قال عن ابن بشكوال « وحدثنى به بسنده المذكور في برنامجه »

(٢) قارن بين صفحتى ٤٣٢ . ٤٠٠

(٣) راجع صفحات ٢٣٥ . ٤٣٠ . ٤٥٥

(٤) انظر الصفحات ٣٦٣ . ٤٢٩ . ٣٣٥ . ٤٣٤

(٥) ص ٣٣٦

(٦) انظر ص ١٦ من مقدمة فهرسة ابن خير - وانظر حديثه عن تفسير الاجازة العامة ص ٤٥٣ من نفس الكتاب . والخلاف فى المسألة طويل . انظر ص ٣١١ وما بعدها من كتاب « الكفاية فى علم الدراية » للخطيب البغدادى (توفى سنة ٤٦٣) طبع حيدر آباد سنة ١٣٥٧

وقبل ابن خير وضع على هذا النمط من الترتيب ابن مسعود الخشني برنامجاً . وابن مسعود هذا هو أبو بكر محمد المعروف بابن أبي ركب^(١) توفي بقرطبة في سنة ٥٤٤ . وترك برنامجاً لم يتبق منه الا أوراق متفرقة وجدناها في دشت مكتبة الأسكوريال^(٢) ، يقول في أولها « الغرض في هذا الجزء أن أذكر فيه بحول الله تعالى أعياناً من الكتب التي رويت ، معرفاً بطرقها ، مقتصر على ما خف من أسانيدنا حسبما اقتضاه الوقت » ثم يتبع ذلك بقوله « فأول ذلك كتب القراءات والتفسير والناسخ والمنسوخ والأحكام وما يتصل بذلك من علوم القرآن » ويبدأ بأول كتاب وهو « كتاب التبصرة في القراءات السبع المشهورات لأبي محمد مكى بن أبي طالب المقرئ رحمه الله » قرأت جميعها على الفقيه الأستاذ المقرئ أبي مروان عبد الله بن عمر بن هشام الحضرمي رحمه الله .

وقد جمع هذا البرنامج — فيما يظهر — أبو ذر مصعب بن محمد ابن مسعود الخشني . وهو ابن أبي ركب المذكور . لما ورد في المخطوط في أحد المواضع من قوله « قال الشيخ الفقيه الأستاذ أبو ذر رضى الله عنه . وعندى الأصل الذى قيده أبى رحمه الله » . وسرى ان برنامج العالم قد يكتبه أحد تلامذته كما حدث في برنامج ابن أبي الربيع .

وإذا حكمنا على الكتاب بما هو موجود منه قلنا انه أقل بكثير في عدد المرويات من فهرسة ابن خير وأن مؤلفه كان يعلن رأيه أحياناً فيما يسرد من كتب ولهذا خطرته وقيمته مثل قوله عن كتاب حجة الوداع

(١) ترجم له ابن الأبار في التكملة رقم ٦٥٥ . وذكره السيوطى في بغية الوعاة ص ١٠٥ وذكر أن ابنه مصعباً روى عنه . وترجم له ياقوت (ارشاد ص ١٩ ص ٥٤ (طبعة رفاعى) والضبى ص ١٢١

٢ . هي أوراق مفرقة في مجموعة الدشت Legajos التى تحمل رقم ١٩٤٢ والتي تحمل رقم ١٩٢٠ . وربما بلغ مجموع هذه الأوراق عشرين

لأبي محمد بن حزم الظاهري « وهذا الكتاب من أنبل تواليفه وأقلها حملا على من خالقه » هذا الى انه يفصل طريقة التحمل .

فهرسة ابن حجر :

وقد سلك هذا الطريق نفسه من المشاركة ابن حجر العسقلاني . فقد أورد مروياته مرتبة على الكتب مفرقة على موضوعات العلوم في الكتاب المسمى بالمعجم المفهرس^(١) وقد بين طريقته في المقدمة القصيرة بقوله :

« أما بعد فقد تكرر سؤال بعض الاخوان في تجريد أسانيدى في الكتب المشهورة والأجزاء المشورة فتوقفت مدة ثم نشطت لذلك ما رجوت فيه من النفع فجمعت ذلك في مواضع متفرقة وبوبته أبوابا فبدأت من الكتب المبوبة بالمضولات منها بالمختصرات وبالجموع منها ثم بالمفرقات ، ثم تلوت بالمسانيد كذلك ، ثم بفوائد الشيوخ ورتبتها على حروف المعجم ثم بالمعاجم والمشیخات ، ثم بالأربعينيات ثم بالتواريخ وما في معناها ، ثم بفنون الحديث .. الخ » .

ولم يعن ابن حجر بالشيوخ الذين روى عنهم شأنه في ذلك شأن ابن خير وأكثر من المرويات أكثر ابن خير . وبرنامج ابن حجر قيم من

(١) منه نسخة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٨٢ مصطلح الحديث . وعلى غلافها كتاب تجريد أسانيد الكتب المشهورة والأجزاء المشورة المسمى بالمعجم المفهرس جمع شيخنا العلامة .. شهاب الدين أبي الفضل أحمد ابن محمد بن عمر بن حجر العسقلاني الشافعي برواية كاتبه الفقير الى الله تعالى محمد بن عمر بن عزم عنه اجازة ومشافهة « وفي آخره ٠ تم الكتاب بمكة المشرفة .. وكان الفراغ منه صباح يوم الثلاثاء الحادى عشر من شهر شوال سنة ٨٥٤ . ومن هذا الكتاب نسخة في مكتبة برلين وصفها أهلورد ج ٩ ص ٢٦٨ تحمل رقم ١٠٣١٢ منسوخة سنة ٨٥٥ في ٢٣٥ ورقة . ولفظ فهرست موجود على نسخة برلين كتاب فهرست مرويات شيخنا . الخ) .

حيث غزارة المادة ، ونجد فيه بين حين وآخر مؤلفات لأندلسيين تجاوزت شهرتهم قطرهم . وصارت كتبهم مرجعا للمشاركة والمغاربة على السواء كآبي عمرو الداني وأبي محمد بن حزم وأبي عمر بن عبد البر . ولقد وجدنا فيه أيضا ديوان ابن دراج القسطلي . ويفرد ابن حجر فضلا طويلا لمعاجم الشيوخ والمشايخ ويرتب هذه وتلك حسب عصور المؤلفين الأقدم فالأقدم

(٢) الطريقة الثانية

وثاني هذه الطرائق هي التي نجدها ممثلة في فهرسة آبي محمد عبد الحق بن غالب بن عطية المحاربي^(٢)، غرناطي توفي سنة ٥٤١ . فهو في هذا الكتاب يأخذ في ذكر شيوخه ، مبتدئا بأبيه الفقيه آبي بكر غالب ، ويسرد نسبه حتى يصل الى عطية بن خالد ، وينص على أنه هو الداخل الى الأندلس وقت الفتح . ذاكرا انه نقل ذلك عن القاضي مطرف بن عيسى في كتابه في تاريخ أهل البيرة ، ويذكر مولد آبيه وانه كان في سنة ٤٤١ ، وانه رحل الى المشرق سنة ٤٦٩ ، وحج وعاد الى الأندلس سنة ٤٧١ ، وتوفي سنة ٥١٨ . ثم يشرع بعد الترجمة في ذكر مروياته عن آبيه ، حتى ينتهي من ذلك في نحو خمس وعشرين صفحة . ثم ينتقل الى شيخ آخر ، هو أبو علي الغساني الجبالي الأصل ، المولود في سنة ٤٢٧ المتوفي سنة ٤٩٨ . وهو خلال حديثه عن الغساني يذكر الفرصة التي أتاحت له لقاءه فيقول « لقيته بغرناطة ناهضا الى جهة المرية للتطبب بها من علته

(١) هو الباب الرابع ورقة ٨١ ظ وما بعدها .

(٢) توفي سنة ٥٤١ . أنظر بروكلمان ج ١ من الملحق ص ٧٣٢ .
وفهرسته مخطوط بالأسكوريال تحت رقم ١٧٣٣ . وهي نسخة قيمة من عصر المؤلف في سنة ٥٣٣ مكتوبة على الرق ، في ٥٧ ورقة ٠٠ وأنظر بونص ص ٢٠٧ رقم ١٧٠ ، حيث يذكر المراجع لحياته . وابن عطية هذا هو صاحب التفسير المشهور (الجامع المحرر) . وقد نشر مقدمته آرثر جفرى بمصر سنة ١٩٥٤ ضمن (مقدمتان في علوم القرآن) .

في ذي القعدة سنة ٤٩٥ هـ فاستجزته .. ثم انحفز لوجهته . ثم صدر بعد شهرين ونصف فأقام عندنا لتوالي المطر نحو من شهر « ونجد فيه تفاصيل طريفة عن الكتب التي رواها . فهو حين يتحدث عن أبي الحسن ثابت بن عبد الله بن ثابت .. العوفي قاضي سرقسطة يقول « لقينته بقرناطة — حرسها الله — أثر تغلب العدو على سرقسطة — أعادها الله — فاستجزته روايته لكتاب الدلائل في شرح غريب حديث رسول الله (صلعم) مما ليس في كتاب أبي عبيد ولا ابن قتيبة . تأليف جده قاسم ابن ثابت ، فأملى على نسبه بلفظه ، وقال لي نسبي هو سندی فيه . ثم سار الى قرطبة واستوطنها حتى توفي بها سنة أربع عشرة وخمسائة . » ثم يعود المؤلف بعد ذلك ليذكر قصة الكتاب التي نجدها مذكورة في طبقات النحويين للزيدي (١) . وعن اشتراك الابن والأب في الرواية والرحلة والتأليف .

برنامج الرعيى

وفي هذه الطريقة نجد برنامجا آخر ، هو فهرسة أبي الحسن على بن محمد بن على الرعيى (٢) الذى أشرنا الى مقدمته من قبل . ان الرعيى يسرد المرويات خلال ذكره للشيخ ، ولكنه حاول شيئا جديدا ليس عند ابن عضية . هو انه قسم هؤلاء الشيخ حسب العلوم التي اشتهروا بها . والتي غلبت عليهم . فيبدأ بذكر « حملة كتاب الله العزيز المتصدرين لاقرائه » ويعد من هؤلاء جماعة ، ثم ينتقل الى ذكر « من لقينته وأخذت عنه ما يسرى من مصنفات الحديث ومسنداته وكتب الفقه » وبعد

(١) ص ٣٠٩ بتحقيق الأستاذ محمد أبو الفضل ابراهيم - القاهرة سنة ١٩٥٤ .

(٢) مخطوط الاسكوريال رقم ١٧٢٩ . أنظر فهرست الاسكوريال تحت الرقم المذكور . والرعيى هذا هو أبو الحسن على بن محمد بن على المتوفى سنة ٦٦٦ والمخطوط في ٤٥ ورقة .

أن يفرغ من هؤلاء يورد « النحويين والكتاب وحملة اللغات والآداب » ثم « المرتسمين بالكتابة والشعر وحمل الأدب » ويبقى لديه بعد ذلك عدد من الشيوخ ، فيأخذ في ذكرهم حسب بلادهم ، جاعلا عنوان هذا الباب « ذكر سائر من لقينته من المشيخة المسندين ، والامام بما يحضر للذكر من أسماء شيوخهم ، والبعض المستفاد منهم . فمن أهل اشيلية رجعها الله .. » ويسرد أسماءهم وما حمله عنهم من كتب ، وينقل الى شريش ثم الى قرطبة ، ثم مورور ثم رندة ثم مالقة ثم غرناطة . . وأخيرا سبتة وتلمسان ! ثم يذكر من لقي من أهل المشرق الذين جاءوا الى المغرب ثم يذكر من بعثوا اليه بأجازاتهم من المشرق . ويختتم ذلك السرد بقوله « وقد بقي من أهل المشرق ممن أجاز لي جماعة لم أورد أسماءهم ، لأنى لا أعرف في هذا الوقت طرقهم ، ولا عنم أخذوا ، ولذلك وقع الذكر أيضا لمن ذكرته آنفا منهم مقتضبا ، لأن أخبارهم لم تصل إلينا وصولا تتحقق به أحوالهم ، ولا وقفنا على فهارسهم . ولعل الله يسنى (لعلها ينسى) الأجل في اللحاق بالبلاد المشرقية ، فنستوفى ذلك وسواء ، بمن الله تعالى » .

واختلاف التجيبي عن المحاربي لا يقف عند هذا فبعد أن ينتهى من التراجم يقول ^(١) « وقد رأيت أن أجرد الآن أسماء جميع من رويت عنه ، ممن تقدم ذكره . ومن عسى أن أكون قد أغفلته ، على النسق الذى تقدم فى هذا البرنامج ^(٢) ذكرهم ، ليكون ميسرا لمن له غرض فى الوقوف على مجرد أسمائهم » ونتيجة لهذا يثبت قائمة فيها تسعة وتسعون شيخا . وكأنها فهرسة للفهرسة .

ولكن الرعيني تغلب عليه الناحية الأدبية ، وهو شغوف بالشعر ، ولا يريد أن يخلو كتابه من ذكر الأدباء والشعراء المعاصرين له ، وبعض

(١) ورقة ٣٨ .

(٢) يلاحظ من هذا تساوى لفظ برنامج ولفظ فهرسة عند المؤلف .

ما سمعه منهم ، فيفرد بعد القائمة السابقة فصلا يضمه بعض من لقيه من شعراء العصر ، ويسترسل المؤلف في هذا ، ويختتم برنامجه بقوله « وقد خاطبني جماعة من الشعراء والكتاب ، وجرت بيني وبينهم مراجعات ، وترددت الى منهم مقطعات ، وغير هذا المجموع أولى بها » .

فهرسة عياض

ومن هذا النمط أيضا كتاب القاضي عياض السبتي عن شيوخه المسمى بالغنية . والذي ذكره ابن خير (ص ٤٣٧) تحت لفظ (فهرسة (١) القاضي أبي الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبي رحمه الله ، روايتي لها عنه اذنا ومشافهة) .

وقد بدأ المؤلف كتابه بمقدمة قصيرة . فيها ما تشتمل عليه مقدمات كتب البرامج غالبا ، من النص على أن تصنيفها انما هو تحقيق لرغبة أعلنها طلبة الشيخ وأهل الثقة به . قال عياض « .. وبعد — أيها الراغبون في تعيين رواياتي ، واجازة مسموعاتي ومجموعاتي ، فقد تعين بحكم الحاكم علي ، ومدكم أيدي الرغبات الي ، أن أنص لكم من ذلك على عيون ، وأخص أوراقني في هذه بما لعله يفي بالمضمون .. » وكذلك ، قال أيضا ابن خير في مقدمة برنامجه « وعرفت ما أوجبه الله تعالى من حقوق طلبة العلم على الكافة . والزاهم اياهم من التحنن عليهم والرافة (٢) »

(١) أعرف من هذا الكتاب نسخة المكتبة الأهلية بمدريد تحت رقم ٣٠٧ فرعية ٦ . ثم نسخة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٤٩١٣ تاريخ . وعلى هذه اعتمد في وصف الكتاب . وهي في ٧٨ ورقة بخط مغربي حديث فيه تصحيح كثير . وان كانت أنيقة المظهر . . . وقد ذكر بونص ص ٢١٩ من كتابه أن المستشرق الاسباني Lafunte y Alcantara قد نشر قائمة بالترجم لهم في الغنية في وصفه لمخطوطات مدريد . . .

Catalogo de los codices arabigos adquiridos en Tetuan por el gobierno

(٢) أنظر ص ٧ من فهرسته ابن خير . وأنظر مقدمة ابن الأبار لكتابه « المعجم في أصحاب الصدفى » حيث أشار الى صنع عياض في مشيخة الصدفى . ومعجم ابن الأبار للصدفى مطبوع في مدريد سنة ١٨٨٤ .

وكثيرا ما يكتب الطالب نفسه برنامج شيخه ، كما فعل ابن الشاذ .
أما كتابة الطالب معجم شيخه فأمر شائع . قام به عياض مع شيخه أبي علي
الصدفي ، وقام به ابن بشكوال مع أستاذه ابن عبد البر (١) .

ثم يشرح القاضي بعد المقدمة في ذكر شيوخه مرتين على حروف
الهجاء ، مبتدئا بالمحمدين منهم ، ثم ينتقل بعد الفراغ من المحمدين الى
ذكر من أسماؤهم على حرف الألف ، الى آخر الحروف . وقد بذقت
التراجم في الغية المائة عددا . وهي تراجم تطول وتقصر ، ولكنها في
جملتها موجزة ، يعنى فيها بذكر مروياته عنهم . مفصلا أسانيدهم . والقاضي
عياض حريص على أن يروى في أكثر تراجمه ، بعد إيراد الكتب ، حديثا
نبويا ، أو حكمة قديمة ، وربما بعض أبيات من شعر ، ذاكرة سندده في
النص المنقول ، وكأنه يريد بذلك أن يحتفظ في كتابه بطبيعة كتب
الأحاديث ، الأصل الأول لهذا الفن كما أشرنا آنفا .

ومن عيوب هذه الطريقة — أي الترتيب حسب الرواة — أن الكتاب
المروى ربما تكرر إirاده في أكثر من ترجمة ، لأن صاحب البرنامج قد
حمله عن شيخين أو أكثر . قال عياض في ترجمة شيخه أبي عبد الله محمد
ابن عيسى التميمي ، عند ذكر صحيح البخاري « ولى فيه أسانيد آخر ،
أذكرها في موضعها إن شاء الله (٢) » وربما أحال القارئ الى موضع
آخر من كتابه . تقاديا للتكرار ، كقوله عند ذكر ابن حمدين « لفيته
بقرطبة سنة سبع وخمسمائة وصدر سنة ثمان ، وجالسته كثيرا رحمه الله
وسمعت عليه الموطأ برواية يحيى بن يحيى الليثي . وقد تقدم ذكر
أسانيدى فيه » (٣) .

(١) ابن خير ص ٤٣٢ .

(٢) ورقة ٢ ظ .

(٣) ورقة ٨ ظ . وقد رسم ابن حمدين في الأصل (أحمدين) وهو

خطا .

ويختتم القاضي عياض كتابه بقوله « هذه مائة ترجمة . وقد تركنا جماعة ممن لقيناهم وذاكرناهم ، وحضرننا مجالس نظرهم ، من الفقهاء والرواة ، ممن نحمل عنهم الكتب ولا الحديث . اقتصارا على ما ذكرناه » ثم يورد بعد ذلك ما رواه من كتب الفهارس . ويذكر نحو من اثنين وثلاثين فهرسة لشيوخ مختلفين . وهي قائمة نافعة لتاريخ حركة تأليف البرامج . وقد سلك - كما رأينا - ابن خير هذا المسلك فسجل فهارس الشيوخ في آخر كتابه كما فعل عياض .

(٣) الطريقة الثالثة

أراد عدد من مؤلفي البرامج أن يجمعوا بين الطريقتين السالفتين ، سرد المرويات من الكتب ، وتراجم الشيوخ على سبيل الإيجاز المعهود . فكان من هذا الجمع النوع الثالث الذي يمثله برنامج ابن أبي الربيع المنشور بعد . ويمثله برنامج آخر نتحدث عنه الآن .

برنامج الوادياشي

صاحب هذا البرنامج هو أبو عبد الله محمد بن جابر الوادياشي تونسي . بها ولد ، ومات في تونس سنة ٧٤٩ . وإن كان من أصل أندلسي ^(١) . وقام برحلتين الى المشرق واليهما أشار في برنامجه الذي وصل اليه ^(٢) . حيث بدئه بقوله « أما بعد - فإن بعض أرباب الرواية ،

(١) ذكره بروكلمان > ٢ ص ٣٧١ من الملحق وقال انه مات في غرناطة سنة ٦٤٦ معتمدا في ذلك على بونص رقم ٢٧٩ الذي اعتمد بدوره على مخطوط الاحاطة فيما يظهر . ولكن ابن حجر (الدرر > ٣ ص ٤١٣) وابن فرحون (ص ٣١١) وعيسد الحى الكتاني (فهرس الفهارس > ٢ ص ٤٣٤) جعلوا وفاته بتونس سنة ٧٤٩ . وهو الصواب .

(٢) ذكر ابن حجر رحلته قائلا « وكانت رحلته الى المشرق مرتين الأولى في حدود العشرين ، ثم رجع فجال في بلاد المغرب حتى وصل الى طنجة . والثانية سنة ٣٤ ورجع الى بلاده ، » .

وبرنامج الوادياشي مخطوط في الاسكوريال تحت رقم ١٧٢٦ . وهي نسخة جيدة في أكثر من مائة وعشرين ورقة .

ذا الشغف بها والعناية ، أحب أن أقيد له أسماء من لقيته من شيوخى
الجملة . زمن مقامى بتونس ، وفى زمنى الرحلة ، وأسمى له ما أخذته
عنيهم كائنا ما كان ، على حسب الوسع والامكان ، ومن أجازنى ممن
لقيته وأخذت عنه ، أو ممن لم آخذ عنه سواها ، أو كتب لى بها من
المشرق والمغرب ، وأن أفصح له عن جملة ذلك وأعرب ، فأجبتة
لما سأل .

ثم عرف منهجه فى ترتيب البرنامج فقال « وجعلته له فى جزئين كما
أمل ، فى أحدهما أسماء الشيوخ وأسابيهم وكناهم ، وما أمكن من
ذكر مواليدهم ووفياتهم وأناشيدهم ، وفى الآخر ذكر المأخوذ عنهم ،
مضافا لهم ما فيه علو سند لكن بالاجازة ، معتمدا فى ذلك طريق ذوى
الاستجازة ، اذ فات حصول المأمول منهم اللائق ، لتعرض الشواغل عن
السند المطابق ، راجيا فى ذلك علو السند ، والله سبحانه الهادى الى
الرشد .

وهكذا يشرع الوادياشى فى ذكر شيوخه ، غير ملتزم حروف الهجاء
وان استقام له ذلك فى كثير من التراجم . وبدأ بترجمة ابن الغماز البنسى
المتوفى بتونس سنة ٦٩٣ ثم بالعالم التونسى ابن زيتون المتوفى سنة ٦٩١
ثم بابى اسحق ابن عبد الرفيح المولود بتونس سنة ٦٣٩ ، ثم بدر الدين
ابن جماعة الحلبي . والمؤلف يترجم لأبيه المتوفى بتونس سنة ٦٩٤ .
ويمضى فى تراجم متوسطة بين الأطناب والاختصار لرجال بين مشاركة
ومغاربة . ثم يختم جزء التراجم بالنساء المجيزات .

ثم ينتقل الى الجزء الثانى من برنامجه حيث يأخذ فى سرد المؤلفات
مبتدئا بالقرآن وعلومه ، ثم بكتب الحديث . وكتب الحديث النصيب
الأكبر من مرويات الشيخ ، حتى ليكاد برنامجه أن يكون سجلا لتلك
الكتب الحديثية . ومع ان المؤلف خص هذا الجزء للكتب وحدها ،
الا أنه لم يخله من بعض النوادر والحكايات التى تتصل بحلقات الدرس ،
كما فعل عند ذكره كتاب الشفا للقاضى عياض .

ذلك هو النوع الثالث من كتب البرامج . وكأنا معه أمام كتابين في كتاب واحد : كتاب ترجمة ، أو بعبارة أدق مشيخه في النصف الأول ثم فهرسة مرويات في النصف الثاني . أما برنامج ابن أبي الربيع الذي يدخل في هذا النوع فستحدث عنه وعن مؤلفه بعد ذكر الطريقة الرابعة من كتب البرامج .

(٤) الطريقة الرابعة

ليس بين يدي برنامج يمثل هذه الطريقة ، وإنما لدى نص سجله ابن عبد الملك المراكشي في كتابه الذيل والتكملة (١) وصفا لبرنامج لم يصل إلينا ، ولكنه من التفصيل بحيث يجعل صورة ذلك البرنامج واضحة المعالم . قال في ترجمة أبي الحسن بن مؤمن وهو أندلسي توفى بفاس سنة ٥٩٨ ما يلي . بعد ذكر شيوخ ابن مؤمن (٢) .

« وقد ضمنهم برنامجهم الذئى سماه « بغية الراغب ومنية الطالب » وهو برنامج حفيظ ، أودعه فوائد كثيرة كاد يخرج بها عن حد الفهارس الى كتب الأمالى المفيدة . ووقفت على نسخة منه بخطه في ثمانية عشر جزءاً ، أكثرها من نحو أربعين ورقة . واقتضبه في ثمانية أجزاء من تلك النسبة . ووقفت عليه أيضاً بخطه . ورأيت نسخة أخرى من الأصل في سفرين كبيرين . ويكون هذا البرنامج في حجم جامع الترمذى أو أشف . وعرف فيه آحواى رجاله الذين روى عنهم ، وذكر أخبارهم ومناقبهم فى العلام . وسيرهم وأخلاقهم . وأسند عن جمهور منهم أحاديث وحكايات وأناشيد وأدعية وضرفا مستطرفه . فجاء كثير الامتاع . منوع

(١) مخطوط دار الكتب (حليم ٦١) . وقد وصفناه وتحدثنا عنه فى مقالة لنا بصحيفة المعهد المصرى بمديرية تصدر فى يونيو من هذا العام . والنص فى ورقة ٧٨

(٢) هو على بن عتيق بن عيسى بن أحمد الخزرجى عرف بابن مؤمن . ولد بقرطبة سنة ٥٢٢ وله ترجمة فى صلة الصلة المطبوعة بالرباط بعناية ليقى بروفئسال ص ١١٥ . وترجم له ابن الأبار فى التكملة رقم ١٧٧٧ .

الفنون والأغراض . و صدره بطرف صالح من بيان فضل العلم وصناعة الحديث . وطرق الرواية ، وكيفية الضبط ، الى غير ذلك من آداب علمية وفوائد حديثة نافعة » .

ذلك هو الوصف الذى قدمه ابن عبد الملك لذلك البرنامج الذى أُلّف فى القرن السادس الهجرى . وفى ترجمة ابن الزبير لابن مؤمن ما يوضح السر فى ضخامة هذا البرنامج وان لم يشر ابن الزبير اليه . قال « واستجاز له أبوه أعلام الأندلس فى وقته . وأخذ هو عن آخرين فكثرت شيوخه ، ورحل فحج .. واعتنى بباب الرواية كثيرا . وقيد وكتب ولكن ابن الزبير لم يتركه دون أن ينصفه . قال « الا انى خبرته فوجدت فى بعض ما أعتنى به من أمهات مروياته خلا يقدح فى الرواية ، ويخل بما شهر عنه فى هذا الباب من العناية . وكذلك ألفت ما نقله الشيخ أبو العباس (١) فى كتاب الذيل عن أبى مؤمن هذا ، من تعريف بحال ، أو تقييد وفاة . أو مولد أو غير ذلك ، قد كثر فيه أوهامه ، فدل ذلك على أن هذا الشيخ كانت فيه غفلة مخلة والله أعلم » .

على أى حال لم ينتشر هذا الأسلوب من التأليف فى كتب البرامج . وانما أخذ البرنامجيون أنفسهم بالاعتدال والاعتناء قبل كل شىء بسرد الكتب وآسانيدها ، دون استطراد يبلغ حد كتب الأمالى كما قال ابن عبد الملك . وربما وجدنا فى بعض ما ألفه المشاركة من مشيخات شها بهذا الأسلوب الرابع من أساليب البرامج . ومشيخة أبى طاهر السلفى المعروفة بالمشيخة البغدادية (٢) ، والتي وصلت الينا أجزاء منها فيها

(١) يريد ابن فرتون السلمى الفاسى المتوفى سنة ٦٦٠ (مقدمة بروفنسال لصلة الصلة نقلا عن جذوة الاقتباس لابن القاضى) .

(٢) منها قطعة فى الأسكوريال تحت رقم ١٧٨٣ . وما قرأته منها يجعلنى أضعها فى هذا النوع لما فيها من استطرادات وأخبار . وأنظر عن السلفى بروكلمان > ١ ص ٣٦٥ (= ٤٥٠ من الطبعة الثانية) والملحق > ١ ص ٦٢٤ .

هذا الاستطراد ، ولكنها على كل حال كتاب (مشيخة) وليست ثبوتا
أو فهرسة أو برنامجا .

والآن تنتقل الى ابن الربيع وبرنامجہ .

ابن أبي الربيع

أما البرنامج الذي نشره اليوم فهو برنامج ابن أبي الربيع . كتبه
تلميذه ابن الشاط . وقد ألفه ابن الشاط في حياة شيخه ، لذلك لم يعرف
من أمر شيخه ألا بما يعبر عن اجلاله له واحترامه الشديد واكبار علمه ،
ولم يتجاوز ذلك الى ذكر ميلاد أو أحداث ، ولا وفاة بطبيعة الحال .
ولابن أبي الربيع ترجمة في بغية الوعاة للسيوطي (١) ذكر فيها انه ولد في
رمضان سنة ٥٩٩ هـ وأنه كان « امام أهل النحو في زمانه ، وأنه جاء الى
سبته لما استولى المسيحيون على اشبيلية (٢) وأنه صنف عدداً من الكتب
في النحو (٣) وشرح الايضاح وكتاب سيبويه وكتاب الجمل ، وان شرحه
لهذا الأخير في عشر مجلدات ، وأنه مات في سنة ٦٨٨ . واسمه الكامل
عند السيوطي : عبيد الله بن احمد بن عبيد الله بن محمد بن عبيد الله
أبو الحسين بن أبي الربيع القرشي الأموي العثماني الأشبيلي .

ولقد وجدت لابن أبي الربيع ترجمة في صلة الصلة لابن الزبير
(مخطوط القاهرة) (٤) ولكنه يكتب اسمه فيها « عبيد الله بن محمد بن

(١) ص ٣١٩ .

(٢) كان سقوط اشبيلية سنة ٦٤٦ تقابل سنة ١٢٤٨ م .

(٣) أشار بروكلمان ص ١ ص ٥٤٧ من كتابه (الملحق) الى ما وصل
اليها من كتب ابن أبي الربيع وهي زيادة على هذا البرنامج : كتاب المختصر
في النحو مخطوط بالاسكوريال ١١٠ . ١٨٥ ثم كتاب القوانين النحوية
مخطوط بالقرويين بفاس رقم ١١٨٨ . ثم الافصح في شرح الايضاح في فاس
أيضا بالقرويين رقم ١١٨٩ .

(٤) ص ٨٣ . مخطوط بمكتبة تيمور - تاريخ ٨٥٠ . وقد وصفنا
النسخة في مجلة المعهد المصري بمديره العدد الذي يصدر في يونيو من هذا
العام سنة ١٩٥٥ .

عبيد الله بن أبي الربيع القرشي الأستاذ يكنى أبا الحسين ، ويعرف بابن أبي الربيع . من أهل اشيلية أعادها الله . فهو كما نرى يسقط من سلسلة الاسم (أحمد بن عبيد الله) . وابن الزبير هو من هو دقة وعناية . والنسخة المخطوطة نسخة عتيقة قيمة ، ولكن وقع سهو اما من المؤلف أو الناسخ أصبح به والد صاحب البرنامج عند ابن الزبير محمدا . وهذا لا يستقيم مع نص البرنامج الذي كتبه ابن الشاط ، فقد أثبت فيه أحمد وذكر عبيد الله ثلاث مرات .. وكنا افترضنا ان ترجمة صلة الصلة انما هي لجد ابن أبي الربيع صاحبنا ، ولكن ذكر الشيوخ وتاريخ الوفاة يثبتان انها لنفس صاحب البرنامج . قال ابن الزبير « أخذ القراءات عن أبي عمر محمد بن احمد بن محمد بن احمد بن أبي هارون التميمي الاشيلي ، وسمع عليه وقرأ وأجاز له ، وأخذ معه عن المقرئ المحدث الحافظ أبي بكر محمد بن عبد الله المعروف بالقرطبي الاشيلي ، وعن الأستاذ المقرئ الجليل أبي الحسن بن جابر الدباج ، وسمع عليه بعض كتاب سيبويه . وعن الأستاذ الجليل أبي علي الشلوين . واعتمده في علم العربية . قال : قرأت عليه جميع كتاب الايضاح وأكثر كتاب سيبويه وسمعت بعضه من قراءة غيري (١) . وذكر أبعاضا من غير ذلك من الكتب الأدبية . وأخذ أيضا عن غير من ذكر . وأجاز له القاضي أبو القاسم ابن بقي وجميع من سمي .

« أقرأ رحمه الله باشيلية الى أن خرج عنها بخروج أهلها ، فاستقر بمدينة ستة وأقرأ بها الى أن توفي بها يوم الجمعة السادس عشر لشهر صفر سنة ثمان وثمانين وستمائة . وكان مولده سنة تسع وتسعين وخمسائة . وكان رحمه الله آخر من أقرأ من جلة أصحاب الأستاذ أبي علي رحمه الله . وشرح كتاب الايضاح لأبي علي الفارسي شرحا شافيا . وألف

(١) يلاحظ أن هذا هو نفس النص الذي سيرد في البرنامج عند الحديث عن الشلوين مما يدل على أن ابن الزبير كان في الغالب ينقل عن هذه المدرسة .

غير ذلك ونفع الله به كثيرا . وكان نحويا لغويا جليلا فقيها فرضيا ، معانا على علمه بما جبل عليه من الانقباض عن الناس ، ومباعدة أهل الدنيا ، وقلة العيال وشغل البال ، منعكما على التدريس والتعليم حتى أتاه اليقين » .

تلك هي شهادة ابن الزبير . وهي تفسر لنا المنزلة العلمية والخلفية التي فخر بها ابن أبي الربيع عند تلميذه ابن الشاط ، حتى آثر اغفاءه من كد التأليف ، وأبى الا أن يكون لشيخه المنقبض عن الناس ، المبعاد لأهل الدنيا ، برنامج يحفظ ذكراه وذكرى أساتذته .

ابن الشاط (١)

أما ابن الشاط فهو قاسم بن عبد الله بن محمد بن الشاط أبو القاسم الأنصاري ولد في سبتة في الحادي عشر من ذي القعدة عام ٦٤٣ . ومات في سبتة أيضا عام ٧٢٣ عن نحو ثمانين عاما . وقد ذكره ابن جابر في برنامجه الذي ذكرناه ، وقال عنه « روى عن ابن مشليون ، والمحستاني ، ومحمد بن علي الأندى ، وخاليه محمد وعلي ابني احمد بن محمد الأنصاري » ولم يذكر ابن جابر تاريخ وفاته مما يحمل على الظن أن برنامج ابن جابر كتب قبل وفاة ابن الشاط .

ولابن الشاط مؤلفات وصل بعضها إلينا ^{١٢} . وقد شارك في فن

(١) ذكره بروكلمان في تاريخه > ٢ ص ٢٦٤ (= ٣٤٠ من الطبعة الثانية) > ٢ ص ٢٧٤ من الملحق وأشار الى درة الحجال لابن القاضي > ٢ ص ٤٥٦ . وعبد الحى الكداني : فهرس الفهارس > ٢ ص ٤١٣ (لاص ٥١٢ كما ذكر) وعبد الله كيون في : النبوغ المغربي في الأدب العربي > ١ ص ١٢٨ . وأخطأ بروكلمان فجعل وفاته سنة ٧٢٥ على حين أن بونص (ص ٣١٨) ذكرها صحيحة سنة ٧٢٣ .

(٢) وصلنا كتابه « الاشراف على الشرف برجال سند البخاري عن طريق الشريف علي بن أبي شرف ، مخطوط الأسكوريال ضمن المجموعة التي تحمل رقم ١٧٢٢ وفيه ترجمة لرجال سنده للبخاري - وله أيضا شرح على أنوار البروق للقرافي . منه نسخ عديدة في الأستانة والزيوتونة والقرويين ، حسب ما ذكره بروكلمان في ترجمة القرافي > ١ ص ٦٦٥ من الملحق .

كتابه البرامج لا يعمل برنامج شيخه ابن أبي الربيع فحسب ، وانما بتأليف
فهرسة لنفسه أشار إليها ابن فرحون ، ولم تصل إلينا .

ملاحظات على برنامج ابن أبي الربيع

أول ما يلاحظ على هذا البرنامج انه لم يكتب بقلم صاحبه ، وانما
كتبه تلميذه ابن الشاط كما رأينا . ففقد بذلك البرنامج بعض النواحي
الريقة التي نجدها في برامج من يكتبون بأنفسهم عن شيوخهم ، من
الاشارات العاطفية التي تدخل في جملة الذكريات ، حقا ان البرنامج كتب
في حياة ابن أبي الربيع ، وكتب في حضرته وعلى مسمع منه ومرأى ،
ولكن الشيخ لم يتدخل في أسلوبه ومنهجه ، وانما كان يسأل عما قرأ
فيجيب في قصد ودقة .. ولم يخل البرنامج خلوا تاما مع ذلك من هذه
الاشارات حين يذكر ابن أبي الربيع بأحد شيوخه مثل ما حدث في الكلام
عن أبي القاسم بن بقى في قوله « قدم علينا اشيلية وهو شيخ كبير »
أو مثل قوله « لزمتم مجلسه » عن شيخ آخر . أو « حضرت مجلسه
بجامع العديس » أو « وغير ذلك مما خرج عن ذكرى » . ولكن ذلك
لا يخرج جزء التراجم في البرامج عن الجفاف أو الجد الذي يتسم به ،
والمسافة واسعة من هذه الناحية بينه وبين برنامج ابن عطية وبرنامج
أبي الحسن الرعيني . والسبب في هذا كما قلنا ان كاتبه كان تلميذ الشيخ
وهو تقليد ظهر في برامج أخرى كما أشرنا .

والأمر الثاني الجدير بالملاحظة هي أن البرنامج صغير الحجم بصورة
تستلقت النظر ، سواء في عدد الشيوخ ، أو في عدد الكتب المروية .
فالأولون اثنا عشر شيخا لا أكثر ، ولقد وجدنا اشارات متعددة في كتب
التراجم الى فهارس تشتمل على مئات الشيوخ ، ومنها ما يبلغ فيه العدد
ستمائة شيخ . والكتب التي سردها ابن أبي الربيع في القسم الثاني من
البرنامج لا تتجاوز أربعة وثلاثين كتابا ، يضاف إليها ستة كتب وردت في
قسم التراجم ، ذكر الشيخ أسماءها ، ولم ترد في باب الكتب ، فيبلغ

مجموع ذلك أربعين كتاباً^(١) . الى اشارات موجزة مبهمة عن أبعاض تأليفات علمية لا تذكر أسماء كتبها . فاذا قيس هذا كله الى فهارس أخرى بدا الفرق الشاسع الضخم . وحسبنا أن نقول ان الكتب التي ذكرها ابن خير في فهرسته تجاوزت الألف . ولم تكن منزلة ابن أبي الربيع وهو صاحب مؤلفات مشهورة لتجعله دون غيره من العلماء أصحاب البرامج بنسبة أربعين الى ألف . ونحن نعتقد أن ضآلة عدد الكتب في هذا البرنامج هي مصدر قيمته . وأنها تجعل منه مستندا خطيرا في الوقوف على حركة التعليم والتدريس في الأندلس في القرن السادس والسابع ، بما لا يحققه برنامج ابن خير على ضخامته ، وعلى قيمته العظمى في الوقوف على المكتبة العربية ، والنشاط التأليفي خلال العصور المتفاوتة . نقول : فهرسة ابن خير مادة لدراسة حركة التأليف وفهرسة ابن أبي الربيع مادة لدراسة حركة التعليم والتدريس .

ونستطيع أن نقيم بعض الفروض ليستقيم لنا تفصيل المسألة وشرحها ، فنقول ان الحياة العلمية لابن أبي الربيع تنقسم الى ثلاث مراحل ، الأولى مرحلة الابتداء ، التي يشترك فيها الولدان جميعاً . فيتعلمون الخط والقراءة . ويؤخذون بعرفة شيء من لغة ونحو وحفظ القرآن والشعر الى غير ذلك . مما كان موضوعاً لفصل في مقدمة ابن خلدون ، ذكر فيه اختلاف طرائق أهل الأمصار^(٢) . والمرحلة الثانية هي الانقطاع للعلم ، رغبة في التخصص فيه . واستعداداً لاتخاذ مهنة وهي مرحلة طويلة ،

(١) معروف أن لفظ (أربعين) كان عنسوانا لعدد ضخم من كتب الحديث سمي بالأربعينيات ، يورد فيه المصنف أربعين حديثاً استجابة لما يروى عن النبي من أنه قال « من حفظ على أمتي أربعين حديثاً في أمر دينها بعثه الله تعالى يوم القيامة في زمرة الفقهاء والعلماء » أنظر كشف الظنون تحت (أربعينيات) . ولكن ليس ورود أسماء أربعين كتاباً في هذا البرنامج معناه أن كاتبه لمح هذا الأمر . . .

(٢) المقدمة ص ٥٣٥ طبعة بولاق سنة ١٣٢٠ .

يؤخذ فيها الطالب بدراسة كتب (مقررة) على شيوخ مختصين ، تقام حلقاتهم في المساجد غالبا . في هذه المرحلة جلس ابن أبي الربيع الى أبي على الشلوين ولزم مجلسه كما يقول ، وقرأ عليه ما ذكره في برنامجه وجلس الى سائر الشيوخ الذين ساهم وقرأ الكتب التي سرد أسماءها وأسانيدھا . وكانت لابن أبي الربيع قراءته (الحرّة) خلال تلك الفترة بغير شك من كتب في التاريخ وفي الشعر وفي الرسائل الأدبية ، مما ألفه الأندلسيون أو المشاركة . ثم تجيء المرحلة الثالثة والأخيرة ، وهي التي يتخذ فيها ابن أبي الربيع مكانه في حلقة الدرس مدرسا لا طالبا . وهو يقوم في هذه الفترة بالتدريس وبالتأليف أيضا ، وقرأ خلال ذلك عشرات الكتب أو مئاتها ، ويلقى كثيرا من أقرانه العلماء ، من أهل بلده أو الغرباء عنها ، يسألهم ويفاتشهم ، ويستجيزهم ويجيزهم كذلك . ونحن نفترض ان نفس هذه المراحل مر بها ابن خير الأشيلي . ثم أخذ الرجلان بعد ذلك في وضع برنامجهما . فماذا سجلا فيهما من هذه المراحل ؟ لم يسجلا شيئا عن مرحلة الابتداء ، لأنها ليست مرحلة الكتب والأسانيد . وسجل ابن خير جميع ما رواه على اختلاف أنواع الرواية خلال المرحلة الثانية والثالثة ، فكان برنامجه الضخم جامعا بين الكتب (المقررة) والمطالعات (الحرّة) والاجازات العامة والخاصة من علماء الشرق والغرب ^(١) . أما ابن أبي الربيع فلم يسجل في برنامجه

(١) توجد برامج أخرى أندلسية ومغربية نرجو أن نتعرض لها في فرصة أخرى ، منها :

(أ) برنامج أبي القاسم بن يوسف بن محمد بن علي بن القاسم التجيبي البلبسي من أهل سبتة وهو مخطوط في الأسكوريال تحت رقم ١٧٥٦ . أنظر وصفه في فهرس الأسكوريال في الجزء الثالث تحت الرقم المذكور وهو في ١٢٩ ورقة نسخ قبل سنة ٧٢٤ .

(ب) ثبت شيوخ أحمد بن علي بن أحمد بن علي بن أحمد بن عبد الرحمن ابن خلف البلوي الوادي أشي وهو بخط مؤلفه كتب بعد سنة ٩٠١ . وهو بالأسكوريال تحت رقم ١٧٢٥ في خمسين ورقة ، وقد رتبته على التراجم ، أنظر الجزء الثالث من فهرس الأسكوريال تحت الرقم المذكور . =

الا الكتب (المقررة) التي درسها خلال المرحلة الثانية من حياته العلمية . دراسة حفظ واستظهار ، أو دراسة تدقيق وتحقيق . ومن هنا صغر حجم برنامجه وقلت أسماء الكتب ، ومن هنا أيضا زادت قيمة برنامجه ، لأنه أصبح مستندا للكتب المقررة في مرحلة الدراسة العالية في عصره . وصورة آمنة لحلقات الدرس العامة في المسجد أو في غيره من مجتمعات الطلبة بأساتذتهم . ويمكننا استنادا الى هذا أن نقول ان معظم الكتب — ان لم تكن كلها — التي أوردها ابن أبي الربيع هي الكتب التي وقع عليها الاجماع بين المتخصصين في العلوم الاسلامية المتصلة بالدين واللغة والأدب .

وسنلقى الآن نظرة سريعة على هذه الكتب لنبدى بعض الملاحظات عنها . أول ما نلاحظه خلو القائمة من كتب التاريخ بمختلف فروعها ، الا السيرة النبوية ، مما يدل على أن التاريخ لم يكن له مكان (رسمى)

== (ج) فهرسته ابن غازى وعنوانه « التعليل برسوم الانساد (لعلها الانشاد أو الاستناد) بعد انتقال أهل المنزل والناد ، ومؤلفه هو عبد الله ابن محمد بن أحمد بن غدرى العنمانى المكناسى الفاسى توفى سنة ٩١٩ . والنسخة مؤرخة في سنة ٨٩٦ . وهى فى نفس المجلد الذى يضم فهرسة البلوى (رقم ١٧٢٥) أنظر الجزء الثالث من فهرس الأسكوريال تحت الرقم المذكور .

(د) للغيربى الجبائى المتوفى سنة ٧١٤ برنامج صغير ، ألحقه بكتابه « عنوان الدراية » المطبوع بالجزائر سنة ١٣٢٨ .

(هـ) وأخيرا للعلامة الفاسى المعاصر السيد عبد الحى الكتانى فهرسة مطبوعة فى جزئين بفاس سنة ١٣٤٧ تحت عنوان (فهرس الفهارس والأثبات ، ومعجم المعاجم والمشیخات والمسلسلات) .

(و) فى مخطوط بالأسكوريال رقم ١١٦٠ فهرسة لمؤلف أرجح أنه ابن سيد الناس اليعمرى الأندلسى الأصل المصرى يبدأ من ورقة ١١٤ وينتهى بانتهاء المجلد ورقة ١٨٠ ط .

في الحلقات العامة للمدرس في ذلك العصر^(١) وكان له بغير شك مكانه في الدراسة الحرة . وما يقال عن التاريخ يقال عن الجغرافيا وعن علوم البلاغة والفلسفة وعلوم الأوائل من طب وفلك ورياضيات وفلاحة وكيمياء ، كل هذه دراسات خاصة لعدد محدود من العلماء يتلقاه بعضهم عن بعض ، أو يقرءونه في الكتب دون أشياخ أو أسانيد ، وربما ارتاب أهل الأندلس في بعض هذه العلوم وكرهوا دراستها^(٢) .

والناحية الثانية تتصل بالمؤلفين لتلك الكتب من حيث أوطانهم . أما كتب القراءات فقد عد منها ابن أبي الربيع أربعة ، مؤلفوها جميعا أندلسيون أو تونسيون رحلوا الى الأندلس . أولهم أبو عبد الله بن شريح أندلسي اشبيلي له رحلة الى المشرق . توفي في سنة ٤٧٦ عن أربعة وثمانين عاما^(٣) . وثانيهما أبو عمرو الداني قرطبي سكن دانية وتوفي فيها سنة ٤٤٤ بعد أن تجاوز السبعين من العمر^(٤) . أما الثالث فهو ملكي بن أبي طالب ، قيرواني درس في مصر دراسات طويلة ، ودخل الأندلس ، وبقي فيها أربعة وأربعين عاما وتوفي بها في سنة ٤٣٧ عن اثنين وثمانين عاما^(٥) . والرابع أبو العباس المهدي من المهديّة من تونس ، دخل الأندلس في حدود الثلاثين والأربعمائة كما ذكر ابن بشكوال^(٦) . وكلهم من رجال القرن الخامس الهجري .

(١) كل هذه الأحكام ستظل مقيدة بعصر صاحب البرنامج وربما ببلدة اشبيلية . وكلما كثرت بين أيدينا البرامج كلما كان ذلك أوفى في معرفة حياة المدرس كما أشرنا في أول المقالة .

(٢) لابن حزم رسالة طريقة عنوانها (مراتب العلوم) يتحدث فيها عما ينبغي أن يدرس وما لا ينبغي . وهي ضمن مجموعة من رسائله مخطوطة في مكتبته شهيد على بالاستئانة رقم ٢٧٠٤ . وقد نشرها أخيرا الأستاذ احسان رشيد عباس في هذا العام .

(٣) ابن بشكوال رقم ١٠٩٥ .

(٤) ابن بشكوال رقم ٨٧٣ .

(٥) ابن بشكوال رقم ١٢٧٦ .

(٦) رقم ١٨٥ .

وهذا هو الميدان الوحيد الذي سيطر عليه المغاربة سيطرة تامة ، وعلى العكس من ذلك تماما نجد علم الحديث . فقد ذكر المؤلف ستة كتب ليس لمعربي فيها تأليف ، لأنها هي كتب السنة المشهورة التي أجمع المسلمون في الأقطار كلها على الاعتراف بها . موطأ مالك ، وصحيفا البخارى ومسلم ، وسنن أبى داود والنسائى ، وجامع الترمذى . ونحن نعلم الجهد العنيف الذى بذله الأندلسيون فى شرح هذه الكتب والتعليق عليها ، ولكن حلقة الدرس كانت تعنى بالنص قبل أى شىء آخر ، وكذلك يمكن أن يقال عن كتب اللغة والنحو وأمّهات الكتب الأدبية . ضعف فيها النفوذ الأندلسى حتى كان ينجح ، لولا الدور الذى قام به الأعلام الشنتمرى (١) فى ترتيب الأشعار (٢) السنة والحماسة (٣) ، ولولا الكراسة الجزولية التى ذكرها صاحب البرنامج خلال التراجم . ومع ذلك فالجزولى ، مراكشى زار الأندلس . وفى نسبة الكراسة اليه تجوز كما يقول ابن الزبير (٤) ، وفى دواوين الشعراء نجد أبا تمام والمنبى وأبا العلاء فى سقظ

(١) توفى باشبيلية سنة ٤٧٦ عن الأعلام الشنتمرى . أنظر بروكلمان ص ١ ص ٣٩٩ الأصل (ص ٣٧٦ طبعة ثانية) ، ص ١ ص ٥٤٢ من الملحق .
(٢) سماها ابن خير ص ٣٨٨ : شرح الأشعار السنة الجاهلية .
وسماها بروكلمان : شرح الشعراء السنة .

(٣) رتب الأعلام الشنتمرى ديوان الحماسة حسب القوافى ، وشرحه شرحا وافيا حتى نسب اليه . فليل الحماسة الأعلمية . فى مقدمة ايضاح المنهج (مخطوط الأسكوريال رقم ٣١٢) يقول الكاتب « ولما كانت حماسة أبى تمام الموضوع كتابا أبى الفتح هذان (أبو الفتح بن جنى وكتابه التنبيه والمهيج) مجفوة القدر فى عصرنا ، ومطرحة الاستعمال عند أبناء دهرنا ، حين أختت هذه الحماسة الأعلمية عليها ، باستمالة النفوس اليها . . . »

(٤) أنظر المسألة فى صلة الصلة ص ٥٣ . ٥٤ . وقد توفى الجزولى فى مراكش سنة ٦٠٧ ، أو سنة ٦٠٦ حسب قول ابن الأبار فى تكملته رقم ١٩٣٢ . وتسمى أيضا كراسته بالمقدمة . ومنها نسخ خطية فى الأسكوريال . وأنظر بروكلمان ص ١ ص ٣٠٨ ، الملحق ص ١ ص ٥٤١ .

الزند . ولا نجد ذكرا لشاعر أندلسي ، وفي هذا ما يدل على أن حلقة
الدرس قد شغلت بهذه الأسماء الضخمة عن أصحابهم الأندلسيين ، وفيها
ما يبرر الشكوى المتصلة التي ظل شعراء الأندلس يعلنونها جيلا بعد
جيل ، من أن القرب قد جنى عليهم ، وأن العيب انما في جهالة من حولهم
لا في تقصيرهم هم . فذلك قول ابن حزم .

هنالك يدرى أن للبعد قصة وأن كساد العلم آفته القرب (١)
وذلك قول ابن بقي القرطبي :

ستبكي قوافي الشعر ملء جفونها على عربي ضاع بين الأعاجم (٢)
أما الفقه فجهد الأندلسيين فيه رائع واثابهم غزير ، ومع ذلك
فنصيبهم في برنامج ابن أبي الربيع ليس بالكبير ، ذكر البرنامج ثمانية
كتب ، منها اثنان لمشرقين : التفريع لابن الجلاب ، والتلقين لعبد الوهاب
ابن نصر . وللأندلسيين ثلاثة : مقدمات ابن رشد ، ومختصر الطليطلي ،
والكافي لابن عبد البر . وللقيروان أيضا نصيب يوازي نصيب الأندلس
فالمختصر والرسالة كلاهما لابن أبي زيد والتهديب للبرادعي (٣) .

وفي وجود هؤلاء القرويين ما يدل على أن النفوذ العلمي للقيروان ،
وهو الذي عرفناه في العصور الأندلسية الأولى مثلا في سحنون المتوفى
سنة ٢٤٠ ، حين كانت القيروان مركز العلم في المغرب كله ، وحلقة
الوصل بين المشرق والأندلس ، ظل قائما حتى القرن السادس في الأندلس
وأن عظمة قرطبة في القرن الرابع الهجري لم تستطع أن تغني الأندلسيين
عن مؤلفات القيروان .

(١) الحميدى : جذوة المقتبس - القاهرة سنة ١٩٥٢ ص ٢٩٢ .

(٢) الذخيرة ١ مخطوط القاهرة ورقة ١٦٥ من القسم الثاني وقد توفي
ابن بقي سنة ٥٤٠ أو سنة ٥٤٢ ، الخريدة - صورة دار الكتب الجزء
الحادي عشر .

(٣) ترجم له ابن فرحون ص ١١٢ وقال «وعليه معول الناس بالمغرب
والاندلس . وقد رحل الى صقلية .

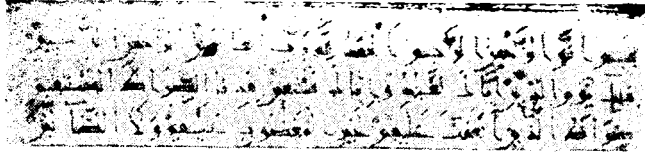
وملاحظة أخيرة هي أن في عدد الكتب المروية حسب العلوم نوعاً من التوازن ، بحيث لا تكاد تغطي كفة على كفة ، ونحن نعلم ان ابن الربيع نحوى قبل كل شيء ، وان نشاطه التأليفى اتجه الى علم النحو ، ولذلك نعتقد ان هذا التوازن دليل على ان البرنامج المذكور يصور الحالة الدراسية المشتركة في عصر المؤلف وبلده ، وبالرغم من هذا الافتراض فاننا لا يجب أن ننسى أن الاختيار في الثقافة الاسلامية القديمة كان حقاً لطالب العلم وان « المقرر » المفروض بالمعنى الذى يوجد في تعليم الدولة الحديثة لم يكن له وجود هنالك .

ضاق هذا العدد من المحلّة عن نشر نص برنامج
ابن أبي الربيع . وسنشره في العدد القادم إن شاء الله

جامعة الدول العربية

مجلة

معها المخطوطات العربية



الجزء الأول

مجلد الأول

مايو ١٩٥٥

رمضان ١٣٧٤

جامعة الدول العربية

مجلة
معها المخطوطات العربية

الجزء الأول

المجلد الأول

مايو ١٩٥٥

رمضان ١٣٧٥

مطبوعة مصر شركة مساهمة مصرية